قصة قصيرة

إبراهيم زيد

بيت العنكبوت

القبو أخيراً.

رجل في الستين من عمره يقذف بنفسه وسط هذا الجو المشحون بألف رغبة؟

تلك تجربة يبدو فشلها مؤكداً مثل حياته؛ في عروقه يتفجر نبع الشهوة كاسحاً كلَّ كيانه؛ ها هي الحياة تسري حوله كالوباء: سهرات.. شراب.. الطاولة الخضراء؛ عالم جديد وشعور يتجاذب بين الرغبة والإثم؛ يتأرجح بين الاثنين، يفرح ويحزن، يحلق في أجواء اللذة، تأكله الحسرة. وثمة في أعماقه ينبض هاجس كالنطفة: هل هو انزلاق إلى الهاوية أو انقياد لا شعوري نحو انتحار مجاني بطيء؟

* * *

في العتمة رنت ضحكة لها معنى مألوف وفي أعماقه هتف صوت: على المائة الأخرى سلام؛ تضيق الحدقتان والعينان في شبه إغماضة؛ عبر تجاعيد غائرة تسربت دموع مالحة تجمعت فوق الشفة العليا فتحسس بطرف لسانه دمعة علقت بشاربه؛ بدت العينان الليلة أكثر سخاءً مثل يده الممتدّة إلى جيبه؛ تضاءلت حزمة الأوراق النقدية فيما ازداد فم جليسته اتساعاً وهي تثرثر في مواضيع لا رابط بينها وعبثت أصابعها بشعيرات رأسه الفضية ثم همست بدلال:

- هذه علامة الرجولة.. أما الصغار فلا أرتاح إلى مجالستهم.

كان القبو يعج كخلية نحل تؤثث فضاءه موسيقى صاخبة بينما جلس الرجل الستيني قبالتها في ركن منعزل يتحاشى وجوهاً فضولية؛ تصغر الأشياء أمام ناظريه كلما حدق إليها أكثر: قنينات.. أقداح.. أجساد تتمايل داخل فساتين ضيقة.. سيقان تتكاثف كدغل؛ أحس بدوار يطيح بالرأس وهو يتابع حركات الأرجل، ومن جديد ينتشله صوتها:

- ترقص؟

أما آن لهذه الحياة الفاشلة أن تتوقف بعد مسار متعب؟

لا مال ولا بنون ولا زينة الحياة الدنيا؛ آه أينك أيتها الأحلام الوردية؟

منذ سنين لا يدري اللحظة عددها، تعرف على منية النفس وعرض عليها الزواج؛ لم تفكر طويلاً فجاءت موافقتها مع لائحة شروط: لا وثيقة زواج وبالتالي لا أطفال.. نتقاسم المصروفات.. حرية التنقل..

ثمة في الأعماق ما يشده إليها فربما تصبح منية النفس عاقلة بعد حين، بعد زمن؛ فتوكل على الله وفي سره قرأ الفاتحة.

تشاغل عن جليسته بإشعال سيجارة وأشاح بوجهه يستنكر فكرة الرقص؛ التقت القدمان فأحدثت القرقعة رنيناً أجوف لضحكتها فهمس لنفسه: سلام على المائة الأخيرة؛ قدم لها سيجارة وعلى فتائل اللهب المتوهج لمعت عيناها ببريق مشع رغم العتمة؛ أمعن النظر إلى وجهها البغي كأنه يكتشفه لأول مرة وفكر: لو قدَّر له الإنجاب لكان من المفروض أن تكون له بنت في مثل سن جليسته؛ هما في الهم معاً لكنها تتوفر على عمر احتياطي ربما أكثر من الذي سلخه بين الأوراق والملفات إلى أن غادر وظيفته غير مطرود مع رسالة تنويه بخدماته الجليلة.

يتذكر اللحظة ساعة تسلم رسالة إدارية تخبره ببلوغه سن التقاعد، فركز نظراته على روزنامة وبعملية حسابية سريعة أدرك أن ما تبقى من حياته الإدارية لا يتعدى بضعة شهور بعدها ستختم الإدارة بعلامة حمراء كبيرة ملف رجل أحيل على المعاش؛ أصبح الآن مجرد ملف دفعه موظف مبتدئ أقل منه درجة.

لاحقته لعنة التقاعد في البيت أيضاً: افتعلت منية النفس مشادة كلامية كان من إفرازاتها مراجعة قاسية لعلاقة فاشلة لم تثمر سوى الفراغ؛ هو نفسه كان يدرك مدى معاناتها بعد زيجتين فاشلتين تخللتهما ثلاث عمليات إجهاض. وتحت تأثير إحباطات متكررة ترسخت لديها

قناعة بأنها لم تخلق للإنجاب ولا هي مسؤولة عن امتداد العنصر البشري، ومن ثم يكون من العبث أن تظل راكضة وراء أوهام تتلقى من أجلها ضربات مشارط الأطباء. فقررت أخيراً أن لا بد من وضع لهذا العبث بربط تسلل القناتين وإغلاقهما إلى الأبد.. قناتي الرحم.

وبالنسبة له فتوالي السنين أفرز بالتدريج شعوراً بالقرف وفقدان الشهية تجاه جسدها يتهرَّأ كما الجدار المتآكل رغم صموده في وجه العواصف؛ لم تعد بشرة الجسد تطفح بالسمرة. صارت البشرة داكنة مثل العينين لفَّهما لون وردي قاتم يميل إلى الزرقة فاحتمتا وراء نظارتين غامقتين.

سمن الجسد المترهل وبدأ ينضح عرقاً مزمناً وبات الاستلقاء بجانبه باعثاً على التقزز، فكان لا مفر من افتراش حشية من الإسفنج المضغوط يتمدد فوقها كل ليلة كأنه كلب يستجدي لمسة حنان من سيدته.

غفا قليلاً ليصحو على بقايا حلم؛ كانت جليسته قد غادرت الطاولة وانضمت إلى جماعة من أقرانها فوجد نفسه وحيداً يعصر جبهته علَّه يعثر على منفذ؛ بدت له السنوات الستون كريهة يشتمُّ فيها رائحة حيوان ميت كالجيفة حين تعزف الغربان عنها بعد وليمة لتبقى من نصيب الديدان تنخرها كالسرطان.

زرَّر معطفه ورفع الياقة وهو يصعد الدرج المفضي إلى الخارج؛ شيعه الحارس بنظرات لمس فيها مسحة رثاء أو ازدراء فكلاهما يناسبان المقام، وتلقفه الشارع الخالي من السابلة إلا من متسكعين قرب حانات تجاور بعضها ترصدها عيون في الزاوية المقابلة... عيون رجال الشرطة.

عبر الشارع بخطوات سريعة مخافة أن تباغته سيارة مجنونة فيكون مصيره أسوأ من نهاية حياته الإدارية، فوجد نفسه في الجهة الأخرى يطلق رجليه تجرانه إلى حيث لا يدري.

عند انعطاف الشارع سار ينحدر باتجاه النهر الغارق في سكون ظلمة شبيهة برحم امرأة وتساءل عن جوف النهر وما يحبل به من أسرار؛ اقتعد حجراً نديّاً ثم سرح نظره نحو سور مائل يربض فوق تل يطل على النهر؛ بدأت عيناه تتابعان التواء السور إلى أن اختفى وغيبته ظلمة أشجار، ثم تساءل من جديد عما يخفيه السور من ألغاز البشر؛ لم يسعفه ذهنه إن كان السور.. سور السجن المركزي إرثاً (حضارياً) من مخلفات الاستعمار أم ضرورة ملحّة لردع البشر.. قهر الذات.. النفس.. وقلما يرتدع البشر بمثل هذه الوسيلة وأشباهها.

أحس بحركة حذاء رجليه فلم يكلف نفسه عناء معرفة مصدرها فالمكان قريب من الميناء ملجأ الفئران ولعلَّ أحدها في طريقه إلى المخازن المهجورة المنتشرة فوق الرصيف بعد أن كان الميناء في أوج ازدهاره، وتقلص نشاطه كما نضبت مياه «سبو» المشهور بفورانه واكتساحه لمنطقة قيل إنها كانت من أخصب المناطق وباتت من أفقرها تعيش على ذكرى رواج بائد ونشاط تجاري انقضى واندثر.

لم تثره حركة الفأر بقدر ما أثاره ضوء القمر المنفلت من بين ثنايا سحب داكنة تتجه غرباً.. غرب المدينة.. جهة المحيط، فظهرت الضفة اليمنى للنهر تكسوها نباتات برية يحفظ أسماءها عن ظهر قلب مُذْ كان صبياً ينزل إلى النهر مع أقرانه يتسابقون لعبوره يحذرون العوم في منطقة معينة حيث دوامة تنكمش على من يقع بين فكيها ليظل في وضع من يصارع شبحاً لامرئياً يخبط بذراعيه.. يخبط ويخبط فلا يتجاوز قطر الدوامة؛ وحين تخور الذراعان يستسلم لقوة خفية تجذبه نحو القاع.. القاع ولو كان يعوم مثل عومة الكلب.

كانت الضفة اليمنى للنهر تغازله من بعيد وتمنى لو عبر إليها حيث نباتات العسلوج والحمّيض يبني وسطها بيتاً بالطين بعيداً عن المدينة.. عن البشر، يستوحي تصميمه الداخلي من بيت زاره ذات ليلة لا يعرف متى وأين هو البيت.

(كان البيت المجهول شبيهاً بزورق مقعر كل عناصره من صلب البحر تغطي جدرانه رسوم توحي بعالم غريب يتخيله الزائر يبحر به متهادياً وسط الدخان؛ لا يعرف أين هو البيت ومتى كانت الزيارة لكن مقاطع شعرية، ضمن الرسوم، ظلت محفورة في ذهنه كالوشم.. كدمغة ملف التقاعد.. يحفظها جيداً ولعلها من قصيدة «الزورق السكران»).

ظل يردد بصوت مسموع مقتطفات من قصيدة «رامبو» واستحضر حلمه القصير.. حلمه حين غفا وهو في القبو مع جليسته ساعة تخيل نفسه يتحول إلى قطعة خشب تتهادى فوق صفحة النهر الهادئ إلى أن يجرفها التيار يدفعها نحو الشط نحو الرغوة فتكون من نصيب نوتيّ ربما يرمّم بها قاربه المشروخ أو يوقد بها ناراً في ليالي القر.. كلاهما يسعده.

وبين ما يسعد ويشقي ظل يصارع نفسه يستنطقها إن كان سيبقى رازحاً تحت وطأة عبث الأيام.. استمرار وجود لا معنى له.. ذكرى بيت واهن كبيت العنكبوت.. ضريبة تقاعد بلا زينة الحياة الدنيا.. ثقل كابوس يجثم على صدره؛ وعاوده الحنين لعبور النهر كما لو كان صبياً فأحس كأن أيادي تجرده من ثيابه واستحضر طفولته أيام كان يسابق أقرانه ثم تساءل هل بإمكانه أن يتجاوز قطر الدوامة أم أنها ستطبق عليه بفكيها لتهبط به غائصاً.. غائصاً تجذبه نحو القاع!؟